التوغل الاستعماري في منطقة حوض الشلف الأوسط وموقف سكان المنطقة منه 1842-1846م.

د. العربي بلعروز*

مقدمة: نقرأ في الكتب الاستعمارية عن ذلك الفعل الحضاري الذي واكب دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، وكيف شرع في تعبيد الشوارع الجميلة على الطراز الأوربي، وإنشاء جملة من الهياكل القاعدية هنا وهناك، من طرق وموانئ ومزارع ونحو ذلك، إلا أن الوقائع التاريخية لا تبرز إلا تلك الصورة الهمجية البربرية لذلك الفرنسي وهو يتصّل لأول مرّة بالإنسان الجزائري بوسيلة الحديد والنّار، وبطريقة فاقت في الهمجية معاملة الهنود الحمر في العالم الجديد.

ومع أن الاستعمار هو ملّة واحدة، الا أن فترة الحاكم العام بيجو الذي انتهج سياسة الأرض المحروقة، كانت الأكثر بشاعة وبربرية لأن الجزائريين دفنوا خلالها أحياء في مقابر جماعية بمغارات حوض الشلف الأوسط، أين ارتكب ضباطه وبأمر منه مجازر يندى لها جبين البرابرة أنفسهم.

لقد سعت الادارة الفرنسية منذ الاعتداء على الجزائر سنة 1830 إلى تكريس الهيمنة الاستعمارية عليها، خاصة بعد انتهاء مرحلة التردد للزعومة[1]، وعيّن الجنرال فالي حاكما عاما على المستعمرة تجسيد هذا التوجه، والذي ظنّ بعد سقوط عاصمة الشرق قسنطينة سنة 1837م، بأن المناطق التي تم الوصول اليها والتواجد فيها هي مناطق آمنة، ويجب توسيعها على حساب للساحة الجغرافية التابعة للأمير عبد القادر، إلا أن ثورة سنة 1839م بالمتيجة عصفت بكل ما حققه الاستعمار وأتباعه من مشاريع استيطانية بالمنطقة، ودفع بالمستوطنين إلى التراجع إلى مدينة الجزائر.

لم يستوعب الماريشال فالي ردّة الفعل تلك، وشرع في تكثيف الهجومات على مدن وقلاع الأمير عبد القادر التي كان يستمد منها قوته؛ وذلك بهدف طمأنة المستوطنين بالجزائر، وإرضاء الطبقة السياسية والعسكرية في فرنسا التي كانت تعوّل على المستعمرة لحلّ مشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولذلك استهدف خلال شهر مارس 1840م كلا من مدينة شرشال والمدية وملیانة التي تمكّن من الاستيلاء عليها بعد أن خصّص لها قوات فاقت العشرين ألف رجل[2].

*أستاذ محاضر ب في التاريخ الحديث والمعاصر – شعبة التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف.

ورغم هذا "النجاح الجغرافي" الا أن أحداث ثورة متيجة سنة 1839م كانت لا تزال في أذهان كل من الساسة والعسكريين، ولكي لا تؤثر تلك الهزيمة على المشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر، ولا تنال من معنويات هؤلاء الأوربيين الذين استهلكتهم للمقاومة الوطنية، شكّكت الادارة الاستعمارية في كفاءة وقدرة الماريشال فالي على التصدّي للمقاومة، ثم لجأت إلى تعويضه بالجنرال بيجو، وجاء ذلك التغيير بهدف التأثير على ذهنيات الفرنسيين والأوربيين معا، ليعتقدوا بأن الشخص الفاشل قد رحل، ورجل الموقف قد وصل، بالنّظر لتاريخه الدّموي حيث ارتكب خلال ثورة باريس يومي 13 و14 افريل 1834م مجزرة طالت النساء والأطفال والشيوخ بشارع تراسنونان (Transnonain) بباريس، الأمر الذي جعل منه شخصية مذمومة من قبل الفرنسيين وخاصة الاشتراكيين منهم[3].

عيّن بيجو حاكما عاما على الجزائر بأمر ملكي صادر بتاريخ 29 ديسمبر 1840م[3]، واختارته الادارة الاستعمارية لدمويته وكلّفته بمهمتين: القضاء على المقاومة المسلّحة وتنشيط حركة الاستيطان، أما وسائل تحقيق ذلك فنستشفها من ذلك الاختيار نفسه. وصل الحاكم العام الجديد إلى الجزائر بتاريخ 22 فبراير 1841م، ولخّص مهمته في البيانين الذين علّقهما على أصوار مدينة الجزائر يوم وصوله، وممّا جاء في أحدهما: "...يجب أن يخضع العرب، ولن يبق سوى العلم الفرنسي واقفا على هذه الأرض الافريقية..."[4]. وهي رسالة للمستوطنين في الجزائر وفرنسا معا بأنه فعلا رجل الموقف، إلا أن الجزائريين كان لهم رأي آخر عبّروا عنه في رسالة قبيلة الحشم[5] إلى بيجو بتاريخ 20 جوان 1841م، ومن بين ما جاء فيها: "...هذه الأرض هي وطن العرب، ولستم إلا ضيوفا عابرين، حتى وإن بقيتم ثلاثمائة سنة كالأتراك، فيجب أن ترحلوا..."[6].

إن تصريحات بيجو التي علّقت على أصوار مدينة الجزائر بأمر منه جاءت من أحكام مسبقة، أو من ثقة مبالغ فيها، بدليل أنه حينما شرع في تنفيذ مخطّطه واجهته مقاومة عنيفة في كل مكان، لم يستطع مواجهتها دون طلب المزيد من القوات العسكرية من حكومة بلاده لتغطية ذلك الفشل، وفعلا استجابت حكومة الملك لويس فيليب لذلك، حيث تزايدت القوات العسكرية الفرنسية بالجزائر حسبما هو موضح في الجدول التالي[7]:

السنة	عدد القوات الفرنسية
1840	63000
1841	78000
1842	78989
1843	85664
1844	90562
1845	89099
1846	107688
1847	101520

هذه المعطيات تعكس من دون أدنى شك قوة المقاومة الجزائرية خاصة خلال أربعينيات القرن 19م التي كانت تعيق للمشاريع الاستعمارية التوسعية في كل المنطقة التي كانت تشملها، ومع الأسف لم تتحدّث عنها لا التقارير العسكرية ولا الكتابات الفرنسية بموضوعية، باستثناء الإشارة الضمنية لذلك في كتاب الجزائر، الماضي والمستقبل لايف لاكوست وآخرين، حيث أشاروا إلى أن الجيوش الفرنسية التي أرسلت إلى الجزائر في عهد بيجو كانت تشكّل نصف القوات الفرنسية مجتمعة، وهي سابقة في التاريخ الفرنسي[8]، وهذا تأكيد لواقع تعكسه الأرقام، وواقع آخر هو قوة المقاومة الجزائرية الذي نستنتجه من بين السطور، والذي لا تبرّره سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها ذلك الحاكم العام باستهدافه كل ما من شأنه أن يفيد السكان المحليين ليس في الحرب فحسب بل في المعيشة أيضا، وهو ما يؤكده الباحث إيف لاكوست أيضا حيث قال: "إن بيجو قاد حرب إبادة ضد الأهالي عبر القضاء على المنتوجات والمباني، وتسميم منابع المياه"[9]، وشبّهه في ذلك بنابليون بونابارت الذي شنّ حرب إبادة حقيقية في إسبانيا في بداية القرن 19م.

1- التوسع الاستعماري في منطقة حوض الشلف الأوسط وردود الفعل: رأى بيجو بأن الاستيلاء على مدينتي شرشال ومليانة منذ 1840م ليس كافيا، لأن ذلك لم يمنع استمرار المقاومة في محيط المدينتين، ولذلك شرع في شق طريق بين البليدة ومليانة سنة 1842م لتسهيل انتقال الجيوش الفرنسية في المنطقة[10]، ثم وجّه أنظاره إلى غربها مستهدفا حوض الشلف الأوسط، حيث شنّ أول حملة عسكرية عليه وعلى جبال الونشريس بتاريخ 27 ماي 1842م قادها الجنرال شنغارنييه، والتي وصلت إلى وادي الروينة بعد ثلاثة أيام، وتعرّضت إلى مقاومة عنيفة من قبل قبائل المنطقة، حيث قتل العشرات من جنود الاحتلال، الأمر الذي استدعى توفير تعزيزات عسكرية أخرى قادها الحاكم العام نفسه قدمت من وهران قوامها ثمانية كتائب، ومع ذلك يذكر مونتودون بأن القوات الفرنسية كانت تتقدّم فوق جثث جنودها من

شدّة للمقاومة، قبل أن ترغم على التراجع، ولكن بعد أن انتقمت من الأطفال والنساء ودمّرت وأحرقت كل شيء[11].

بعد فشل الحملة الأولى هذه على المنطقة كلّف بيجو الجنرال شانغارني مرّة أخرى بقيادة حملة ثانية على المنطقة بتاريخ 14 سبتمبر من ذات السنة، استهدفت على الخصوص قبائل جبال الظهرة التي رفضت الانصياع لبعض أتباع المحتل، الذين نصّبوا بمنطقة الونشريس خلال الحملة الأولى.

انطلقت هذه الحملة من مليانة قاصدة بني راشد، ومنها توجّهت جنوبا باتجاه سهل الشلف الأوسط، حيث وصلت إلى زدّين شرق وادي الفضّة، حيث كانت تنتظرها مقاومة أعنف من الأولى يومي 19 و20 سبتمبر عند ممرّ ضيق لمجرى وادي الفضّة، شاركت فيها قبائل المنطقة ولاسيما قبيلة بني بوكانوس (الأزهرية) وبني بودوان (الكرمية)، بمشاركة قوية من سكان سنجاس ووادي الفضّة وحرشون، وكانت الحصيلة مقتل 37 جندي فرنسي من بينهم أربعة ضبّاط، وجرح 68 آخرين من بينهم رائد، وهو الأمر الذي أرغم شانغارنيه للمرّة الثانية عل التراجع إلى البليدة، لكن ليس قبل أن ينتقم، كما عوّدتنا الجيوش الفرنسية الغازية، من السكّان العزّل في اليوم الموالي، بالإضافة إلى أسر العديد من الأطفال والنساء، ونهب 2000 رأس من الماشية[12].

لم تتغير الأوضاع كثيرا مع بداية سنة 1943م، حيث اشتدت المقاومة في كل من جبال الونشريس والظهرة لتمتد إلى شرشال ومشارف متيجة، ولذلك رأى بيجو أنه من الضروري إقامة مراكز عسكرية في منطقة حوض الشلف الأوسط لتقويض مقاومة الأمير عبد القادر في تلك الجهة، التي كانت تعيق حتى ذلك الوقت المشاريع الاستعمارية، ولاسيما الاقتصادية والاجتماعية منها في إطار سياسة الاستيطان التي تبنتها فرنسا الاستعمارية للتخفيف من الضغط الاقتصادي والاجتماعي في الميتروبول.

انطلاقا من هذه القناعة، توجه بيجو غربا نحو الأصنام في أفريل 1843م، وألحّ على ضرورة إقامة مركز عسكري بها لعزل قبائل منطقة حوض الشلف الأوسط عن مقاومة الأمير، التي كانت تمده بالرجال والمؤونة والخيول، وذلك كمرحلة أولى للتمكن من بلوغ الهدف الآخر وهو استغلال المنطقة اقتصاديا وبشريا عبر الاستيطان، وذلك لتوفرها على مقومات فلاحية متنوعة، اعترف بيجو بها في الرسالة التي بعث بها إلى صديقه قاردير Gardère بتاريخ 12 نوفمبر 1842م، حيث قال بأن المنطقة الممتدة بين الشلف ووادي ميناء تزوّد الأمير بالإمكانيات المختلفة[14]، ولكن ذلك لم يكن السبب الرئيس لأنه قال أيضا: "كان للرومان هنا مدينة معتبرة؛ إذا فهي نقطة استراتيجية، ومن المهم البقاء والاستقرار فيها"[15].

تزامن هذا التوجّه الاستعماري في المنطقة باستيلاء قوات الاحتلال على زمالة الأمير عبد القادر بتاريخ 16 ماي 1843م، وكل ما كانت تحويه من عتاد وعدّة ناهيك عن آلاف الأسرى، وهي ضربة قويّة تلقاها قائد المقاومة كان في غنى عنها في تلك المرحلة بالذّات بالنظر إلى الحجم الذي وصلت اليه القوات الفرنسية في الجزائر.

أدركت السلطات الاستعمارية إذا أهمية منطقة الأصنام منذ البداية، كما أدركت أيضا الأهمية الاستراتيجية لمدينة تنس المجاورة وميناءها البحري، ولذلك قررت وزارة الحرب الفرنسية الاهتمام بالمنطقتين منذ سنة 1843م، بعد تلقيها لمراسلة من الحاكم العام بتاريخ 10 مارس 1843م اقترح فيها انشاء مدينة من 10.000 نسمة على أنقاض المدينة الرومانية (كاستيلوم طانجيتيوم)، تحت اسم أوريليانفيل[16].

لم يتأخر ردّ وزير الحرب كثيرا، حيث استقبل بيجو قرارا منه بتاريخ 16 ماي 1843م بإقامة مركز الأصنام العسكري تحت اسم أوريليانفيل[17]، باقتراح من الحاكم العام كما قد سبقت الإشارة إلى ذلك، في انتظار الأمر الملكي الذي سيجعل منه مدينة كما سيأتي.

كان التمكّن من تنس أيضا على الساحل يعتبر نقطة ارتكاز هامة لاحتلال كل منطقة سهل الشلف الأوسط لأنه يسهّل عملية التموين، علاوة على أن قوات الاحتلال كانت لا تملك قاعدة بحرية على الساحل من شرشال إلى مستغانم على حد تعبير بيجو نفسه[18]. كان هذا من الجانب النظري والاستراتيجي، إلاّ أن تجسيد هذا المشروع الاستعماري لم يكن بالأمر الهيّن، بدليل أن شانغارنيه فشل في الوصول إلى تنس نهاية سنة 1842م، متحججا بالظروف الطبيعية الصعبة، كما فشل أيضا الحاكم العام نفسه في محاولته التي كانت في شهر جانفي 1843م، ولم تنجح القوات الاستعمارية في اختراق جبال الظهرة للوصول إلى تنس إلا في المحاولة الثانية التي قادها بيجو أيضا في 28 أفريل 1843م[19]، وهو ما مكّن قوات الاحتلال من إقامة مركز عسكري في مدينة تنس بهدف تجميع قوات فرنسية دائمة على الساحل.

ومع كل ذلك ظلّت مهمة فرنسا في المنطقة صعبة للغاية، لأن الأمير عبد القادر كان يحظى بدعم كل القبائل في المنطقة من الظهرة شمالا إلى غاية جبال الونشريس جنوبا، وذلك رغم إنشاء الجيش الفرنسي لمركزين عسكريين آخرين في كل من ثنية الحد بقيادة الجنرال شانغارنييه، ومركز تيارت الذي أوكلت قيادته إلى الجنرال لاموريسيار[20]، وهو ما يعني أن تلك المناطق كانت ثائرة ضد التواجد الفرنسي؛ بدليل مهاجمتها في بداية شهر ماي 1843م للعاملين في مشروع الطريق الممتد من الاصنام إلى تنس من قبل 500 فارس وعدد مماثل من المشاة، الأمر الذي تسبّب في ارتباك هؤلاء الجنود ومن ثمّ التأثير على الأجندة

الاستعمارية، خاصة إذا علمنا بأن تنس- عن طريق البحر- أخذت في استقبال أولى الشحنات من العتاد والعدّة لإقامة البنايات الاستعمارية في كل من تنس والأصنام، وكانت أولاها ثلاثة سفن بخارية رست بالميناء واستقبلها الحاكم العام بنفسه، كما استقبل أيضا العقيد كافينياك الضابط الذي اختاره لقيادة مركز الأصنام لتجسيد مشروعه الاستعماري في المنطقة[21].

بعد الهجوم الذي استهدف القوات الاستعمارية بين تنس وأورليانفيل في بداية شهر ماي، قرّر بيجو التوجّه في 25 من ذات الشهر على رأس قوة عسكرية معتبرة إلى جبال الظهرة الشرقية لإخضاع القبائل التي كانت تحت قيادة البركاني خليفة الأمير عبد القادر في المنطقة، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق أهدافه العسكرية، لأن الثورة بدأت تنتشر في المنطقة إلى أن شملتها كلها في التاسع من شهر جويلية ضد التواجد الاستعماري.

ورغم ذلك، وحرصا منه على إرضاء القيادات السياسية والعسكرية في فرنسا، قام بيجو بالكتابة إلى وزير الحرب بتاريخ 5 أوت 1843م بشأن ضرورة الإسراع في تحديد الأراضي البلدية في كل من أورليانفيل وتنس، ووجوب إنشاء مصلحة للدومين في كليهما لتنظيم الممتلكات المعتدى عليها، بهدف إغراء المستوطنين وتشجيعهم للمجيء إلى المنطقة، وفعلا جاء رد الوزير سريعا كالعادة وبالإيجاب في 25 من أكتوبر 1844م[22]، لأن ذلك الاجراء سيعمل على تشجيع توافد المستوطنين الأوروبيين إليهما، للاستعانة بهم في تخفيف الضغط على القوات العسكرية باعتبارهم دعم وسند لها، وبالتالي التقليل من الضغط الاجتماعي بفرنسا.

وفعلا، فقد تم إحصاء عدد من المستوطنين المتواجدين بأورليانفيل منذ وقت مبكّر بـ600 شخص سنة 1845م[23] بعد أن أسالت لعابهم التربة الجيدة بالمنطقة والتجارة الواسعة مع القبائل المجاورة، وهذا ما شجّع الإدارة الاستعمارية على إصدار قرار بإنشاء مدينة من 2000 شخص من قبل البرلمان الفرنسي، والذي صادق عليه وزير الحرب بتاريخ 11 اوت 1845م[24]، وتوج ذلك بصدور الأمرية الملكية المؤرخة في 14 أوت 1845م التي نصّت مادتها الأولى على إقامة مدينة من 2000 نسمة تسمى أورليانفيل، بينما نصت المادة الثانية على تخصيص مساحة 2000 هكتار كإقليم مباشر وآني للمدينة الجديدة، وكلّف الوزير الأمين العام للحرب ورئيس المجلس حسب المادة الثالثة بتنفيذ ما جاء في الأمرية[25].

لم يكن هذا الإلحاح على إقامة المدينة نابع من فراغ، أو نتيجة ملاحظة شخصية من بيجو قد تمّ عن مبالغة أو سوء تقدير، بل حتى العقيد سانت آرنو الذي عيّنه بيجو قائدا للمنطقة محل كافينياك بتاريخ 24 نوفمبر 1844م، أبدى نفس الملاحظة، حيث كتب إلى الحاكم العام رسالة في شهر جويلية 1844م

من 6 صفحات جاء فيها: "أن موقع اورليانفيل ممتاز يتوسط مستغانم وملیانة والسرسو والبحر، ومراقبة جبال الونشريس وحوض جدّ واسع هو أمر ذا أهمية قصوى"[26]، كما كتب في مقام آخر "بأن أورليانفيل هي ذات أهمية جغرافية وسياسية كبرى"[27].

بالموازاة مع ذلك كانت القوات الاستعمارية تعمل على توفير ظروف مناسبة لتحقيق مخططاتها الاستعمارية بالمنطقة، حيث بادرت بأمر من بيجو إلى تقويض سكان الظهرة وإفزاعهم واستهداف كل ممتلكاتهم، وكانت البداية بقبيلة صبيح التي كانت تضم أكثر من عشرة آلاف نسمة، وقسّم بيجو قواته إلى قسمين: قسم تحت قيادته، وقسم ثان تحت قيادة العقيد بيليسييه Pelissier، وكانت الحصيلة أسر 2000 شخص والاستيلاء على أكثر من ستة آلاف رأس من الماشية[28]، ثم شرعت القوات الغازية في تنفيذ مخططاتها الاستعمارية وأهمها تكملة مشروع شق الطريق الرابط بين تنس وأورليانفيل الذي قال سانت آرنو بشأنه: "عن قريب سيمكننا التنقل عبر الطريق الرابط بين تنس وأورليانفل الذي رسم مسلكه رئيس كتيبة الهندسة الرائد تريبيي Tripier، لأنني خصّصت له كتيبتين تعملان بالتناوب في الأوقات العادية...، كما أن الأشغال في أورليانفيل جارية بدون توقف خوفا من سوء الأحوال الجوية...، أما الضرائب العربية (العشور) فإنها تدخل الخزينة منذ 28 سبتمبر من ذات السنة[29]، وهو ما يعني أن جزءا من مدينة أورليانفيل على الأقل بني بما كان يدفعه السكان المحليّون من ضرائب.

بعد الاستيلاء على العاصمة المتقلة للأمير عبد القادر، تشجّع بيجو على قيادة حملة أخرى على جبال الونشريس، وهو ما قام به فعلا حيث قام بتعيين الحاج أحمد بن صالح آغا على المنطقة لرعاية المصالح الفرنسية بها، ولكن بمجرّد انسحاب تلك القوات، التفّ قادة القبائل وأعلنوا استمرار ولائهم للأمير عبد القادر[30]، في رسالة إلى المستعمر بأن الاستيلاء على الزمالة لا يغيّر من إصرارهم على مقاومة الاحتلال.

ولكن السنة الموالية حملت لقائد المقاومة محنة أخرى نتيجة الهزيمة التي تلقاها الجيش المغربي في إيسلي في 14 أوت 1844م أمام الجيش الفرنسي، والتي تليت بعقد اتفاقية لالا مغنية بين الطرفين المغربي والفرنسي في العاشر من سبتمبر من ذات السّنة، والتي أجبرت حكومة المخزن عن التخلّي عن دعم الأمير عبد القادر، وهو ما أفقد قائد المقاومة حليفا استراتيجيا على الأقل بالشكل الرّسمي؛ وهو الأمر الذي تفطّنت له الإدارة الاستعمارية حيث أدركت بأن اتفاقية العاشر من سبتمبر غير كافية لتحييد الشعب المغربي عن دعم الأمير عبد القادر الجزائري، ولذلك تداركت الموقف بجر المغرب إلى التوقيع على اتفاقية تجارية أشرف عليها ممثل الملك الفرنسي لدى المملكة المغربية الجنرال دو لا ري De Larue مع

السلطات المغربية بالمركز العسكري الفرنسي بلالا مغنية بتاريخ 18 مارس 1845م، والتي ضمنت لها تحقيق جملة من الأهداف هي:

- تنظيم المبادلات التجارية بين فرنسا والمغرب ووضع نظام جمركي بينهما.

- مراقبة كل ما يدخل أو يخرج من سلع بين البلدين من خلال فرض إذن مكتوب يجب أن يتوفر عليه التجار من البلدين لمراقبة دخول الأسلحة وغيرها.

- مراقبة حركة الأفراد على الحدود لمنع أي سند شعبي لمقاومة الأمير عبد القادر.

- ضمان تزويد فرنسا للمغرب بما يحتاجه من مواد مصنّعة.

- التقليل من دور بريطانيا التجاري في المغرب بحكم أنها كانت تسيطر على نسبة عالية من التجارة الخارجية لمملكة المغربية.

وكما هو ملاحظ فإن هذه الاتفاقية حملت جملة من الأهداف التجارية والسياسية والاستراتيجية، تصب جميعها في بوتقة المصالح الفرنسية، وهي بذلك لا تخدم المقاومة المسلّحة في الجزائر إطلاقا[31].

بالموازاة مع تلك المناورة السياسية، كانت الإدارة الاستعمارية غاصّة في مخططاتها الاستيطانية بمنطقة حوض الشلف الأوسط دون أي اكتراث بالقبائل الكثيرة الرافضة للمحتل، إلى أن جاء رد الفعل بمقتل رقيب أول في جويلية 1844م، ثم آخر شهر في جانفي 1845م، وكذا عامل أجنبي في منطقة تنس ممّن يشتغلون في تعبيد الطريق، وكرد فعل على ذلك قامت قوات سانت آرنو حاكم أورليانفيل الجديد بإلقاء القبض على 22 شخصا نفّذ في 12 منهم حكما بالإعدام رميا بالرصاص، ونقل الآخرون إلى فرنسا حيث حكم عليهم بين 20 سنة والمؤبد[32]، ويعدّ هؤلاء أول من أعدم، وأول من نفي من سكان المنطقة.

لم تكن تلك العمليات البطولية التي قامت بها المقاومة سوى إرهاصات ثورة حقيقية بدأت مع شهر أفريل 1845م بقيادة محمد بن عبد الله (الشريف بو معزة)، والتي لم تأت صدفة بل جاءت نتيجة تنسيق بين الأمير عبد القادر ومحمد بن عبد الله لأن الجنرال مونتودون Mantoudon أشار إلى وجود تواصل بين الرجلين حيث قال بأنّ القوات الفرنسية ألقت القبض سنة 1845م على ثلاثة أشخاص كانوا يصلد نقل رسائل من الأمير عبد القادر إلى بومعزة[33]، كما أشار سانت آرنو أيضا إلى أن بومعزة انضم إلى الأمير عبد القادر وصار من رجالاته، وهو نفسه كان يروّج لذلك بين مختلف القبائل[34]، وذكر فالي أيضا أن بومعزة التحق بالأمير عبد القادر بعد الجروح التي تعرّض لها نهاية سنة 1845م، ووصل معه حتى الحدود المغربية ثم افترق عنه، بعد أن تبعه جزء من دايرة الأمير، حيث رجع إلى الظهرة سنة 1846م

لمواصلة مقاومة الاحتلال، إلا أنه لم يتمكن من جمع الأنصار حوله نتيجة سياسة القهر والزجر والإبادة الجماعية التي انتهجها المستعمر.

بعيدا عن الخرافات التي ألصقتها جل الكتابات الاستعمارية بشخصية محمد بن عبد الله، إلا أن الضباط الذين احتكوا به تحدّثوا عن كفاءته ودرايته بفنون القتال، كما أن هجماته كانت تنمّ عن نضج وعن استراتيجية حكيمة، فحينما هاجم في العشرين من أفريل 1845م مفرزة تنس التي كانت تقوم بأشغال الطريق (تنس- أورليانفيل)، استولى على الخيام وكل عتاد العمل[35]، وهو ما يعني أنه كان يهدف إلى تعطيل المستعمر وإنهاء وجوده بالمرّة من المنطقة التي كان يشرف فيها على المقاومة، كما أن قانسوي قال بأن بومعزة كان شديد الذكاء ومتعلّم، وكان يعرف كل الحيّل، ويطبقها على أرض الواقع[36].

لقد أبلى سكان المنطقة البلاء الحسن في مقاومة القوات الغازية منذ 1842م كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إلا أن ذلك كان بشكل تلقائي ردّا على توغل الجيش الاستعماري في المنطقة، ولكن بظهور محمد بن عبد الله في جانفي 1845م اتخذت المقاومة أسلوبا أكثر تنظيما، وباتت قادرة على استهداف المراكز العسكرية الاستعمارية الهامة في المنطقة؛ كمركز اورليانفيل الذي استهدف بتاريخ 28 أفريل 1845م، الأمر الذي جعل العقيد سانت آرنو يتوجّه إلى منطقة الظهرة الغربية على الحدود مع مستغانم باعتبارها مركزا للثّورة، زاعما بأنه سيقضي عليها في المهد، حيث تعهّد في رسالة إلى أخيه بتاريخ 13 أفريل بأنه سينتقل إلى مازونة ومنها إلى جبال المنطقة، وقبل يوم الثلاثاء 15 أفريل سيكون قد أنهى قصّة بومعزة[37].

يبدو أن الصّورة التي نقلها سانت آرنو عن سكان الجزائر لأخيه كانت خاطئة عن قصد، أو لأنه فعلا كان يظن بأن الأتراك هم من كان يصنع قوة الجزائر خلال القرون التي سبقت الاحتلال الفرنسي، وبخروجهم منها لم يعد بحسب لهؤلاء الجزائريين أي حساب، رغم أن مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري قد أسمعت وبرهنت عن موقف الجزائريين من الاحتلال، وقد يكون مجرّد غرور ناتج عن دراسته في المدارس العسكرية الفرنسية، وامتلاك قواته لأسلحة وعتاد غير الذي تحوزه المقاومين الجزائريين، لأن الحقيقة التاريخية التي دوّنها سانت آرنو بنفسه هي أن الشريف بومعزة هو من بادر بالهجوم يوم 14 أفريل على قوات المستعمر والمتعاونين معه في كل من منطقة صبيح وأولاد فارس، حيث تمكّن من قتل عسكريين (معركة جبل كرانشة)، وجرح أربعة آخرين من بينهم نقيب، وأسر عدد آخر.

وتعتبر هذه الواقعة هي أول مواجهة بين الطرفين، والبداية الحقيقية للثورة في المنطقة قبل أن تتوسّع لتشمل رقعة جغرافية واسعة امتدت من ضواحي بوفاريك شرقا إلى مصب واد الشلف غربا، ومن البحر

شمالا إلى جبال الونشريس جنوبا، واعترف سانت آرنو بأن تلك المقاومة تمكّنت من قطع كل الاتصالات بين أورليانفيل وتنس[38].

تجدّدت المواجهات بين الطرفين يومي 17 و18 أفريل 1845م، وكانت معركة اليوم الثاني أعنف لأن قوات الشريف بومعزة كانت أكبر (1500 من المشاة و200 فارس)، وبلغت خسائر القوات الفرنسية 14 قتيلا و33 جريحا، وانهال سانت آرنو كعادته على سكان المنطقة بحرق الديار والمحاصيل وقطع الأشجار المثمرة، وإفراغ كل المطامير مما تحتويه من حبوب.

إن سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها بيجو في المنطقة وكل الجزائر تمم على قوة مقاومة محمد بن عبد الله، وامتدادها الجغرافي الواسع، وتبيّن عبقرية بومعزة في تجنيد وتنظيم سكان القبائل بالمنطقة لمحاربة المحتل، حيث تمكّنت فعلا من إرباكه والتأثير على مشروعه الاستعماري إلى حين، وهو ما جعل الحاكم العام يستنفر كل من العقداء بيليسيه وسانت آرنو ولادميرو للتوجه إلى المنطقة الثائرة، ولم يكتف بذلك بل تنقّل بنفسه إليها بتاريخ 26 ماي 1845م[39]، وهو ما كان يلمّح إلى مؤامرة كبيرة ضد سكان المنطقة الأبطال.

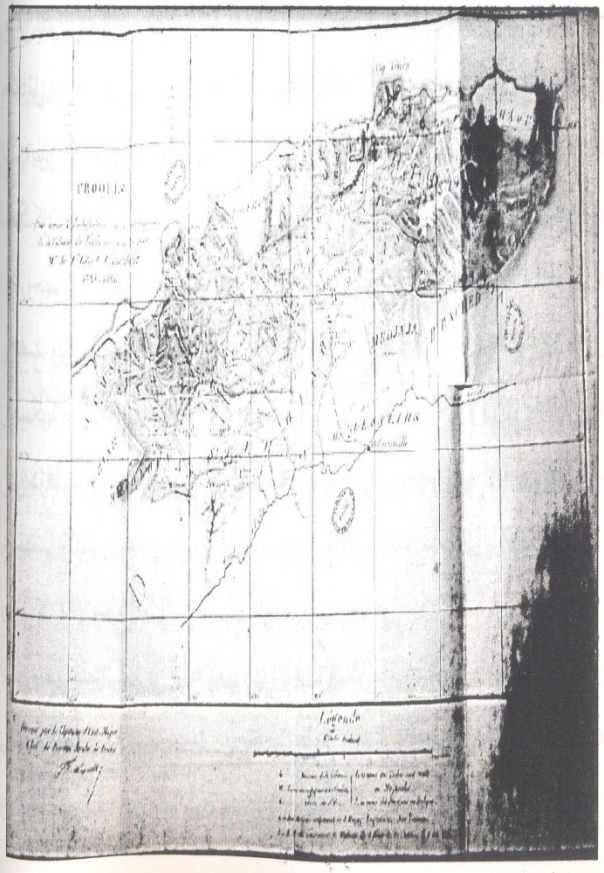

État-major de la subdivision, Journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 1ere quinzaine de mai 1845. SHAT. GR 1H 210.

2- المحارق الفرنسية في منطقة حوض الشلف الأوسط: استهدف كافينياك منذ البداية قبيلة صبيح باعتبارها من أكبر القبائل في المنطقة، حيث انهال عليها بوحشية منقطعة النّظير بهدف إضعافها حيث تم الاستيلاء على 1300 رأس من الماشية، وأسر نحو 2000 شخص جلّهم من الأطفال والنساء للضغط على الثائرين، أما الاستيلاء على الماشية فكان بهدف تحقيق جملة من الأهداف هي:

- تفقير الشعب الجزائري.
- دفع القبائل إلى الاستسلام للحفاظ على حيواناتهم؛ حيث أعاد جيش الاحتلال فعلا لبعض القرى التي قبلت التعامل معه قسما من الماشية المصادرة، إما خوفا أو طمعا.
- تجريد السكان من وسيلة هامة من وسائل المقاومة (الجياد والأحصنة).
- تموين الجيش الفرنسي بغذاء طازج دوريا.

2-1 محرقة صبيح الأولى سنة 1844م: إن تلك المناورات التي كانت تقوم بها القوات الفرنسية لم تجد نفعا، وهو ما يعني أن المقاومة كانت للدفاع عن الأرض قبل أي شيء آخر، ولذلك وبعد أن فشل العقيد كافينياك عسكريا في إخضاع سكان المنطقة عموما ومنطقة صبيح بالخصوص، دفع بالمستضعفين منهم (نساء وأطفال وشيوخ) إلى الفرار والاختماء في مغارات تقع بالمنطقة، حيث ارتكب في حقّهم وفي صمت تام أول محرقة في المنطقة سنة 1844م[40]، لم تذكرها لا الكتابات التاريخية ولا الشهادات العسكرية، وإنما أشير إليها ضمنيا وفي سياق آخر في كتاب الدكتور قانسوي، وكذا لويس دو شاربونيار الذي أورد قولا لبيجو بشأنها، حيث قال وهو يخاطب العقيد بيليسيه بشأن مغارة الفراشيش: "أحرقهم كما فعل كافينياك في صبيح"[41]، وأورد الجنرال ديوكاجي أيضا نص رسالة بعث بها بيجو إلى بيليسيه بتاريخ 11 جوان 1845م ومما جاء فيها: "إذا لجأ هؤلاء الأوغاد إلى مغاراتهم، تصرّف كما تصرّف كافينياك في صبيح، اختقهم جميعا مثل الثعالب"[42].

إن هذه المعطيات التاريخية، لا تترك مجالا لأي شك من أن المنطقة شهدت فعلا تلك المحرقة وفي صمت رهيب، في وقت كان الجميع منشغلا بالحرب ضد المغرب وبانتصارات بيجو في معركة إيسلي؛ ولذلك لا نملك معطيات عن مكانها الجغرافي بالتحديد ولا عن تاريخ وقوعها ولا عن عدد الضحايا بها.

ولكن في ذات الوقت تظهر جليا بأن بيجو السفّاح هو من أعطى التعليمات والضوء الأخضر لضباطه بالانتقام الشديد من كل من رفع السلاح في وجه فرنسا دفاعا عن الأرض والعرض، وهي تعليمات كان قد تلقّاها هو أيضا من الحكومة الفرنسية حينما تم تعيينه حاكما عاما على الجزائر، لتحقيق

أهداف استعمارية واضحة (القضاء على المقاومة، وتوسيع حركة الاستيطان، بدليل أنه كان يستعمل كثيرا كلمة "يجب بلوغ الأهداف"، تلك التي رسمتها حكومة الملك لويس فيليب وطالبته بتحسيدها، وهو ما يجعلنا نستنتج بأن المسؤولية التاريخية عن تلك الممارسات البربرية والهمجية تلقى على فرنسا ككيان سياسي وكدولة، ولا تتحمّلها زمرة من الضباط فحسب.

2-2- **محرقة قريوسة جانفي 1845م:** ليس بعيد عن المنطقة الأولى، يذكر الجنرال مونتوبون محرقة أخرى في الجهة التي كانت تابعة عسكريا للجنرال بورجولي بالقرب من إقليم قبيلة فليتة، التي أفشلت محاولات عسكرية كثيرة للجنرال، وتلقّت القوات الفرنسية مقاومة عنيفة في جبال قريوسة الجرداء إلى الجنوب الغربي من الشلف، حيث اعتمدت المقاومة على حرب العصابات وذلك بفعالية كبيرة، وساعدهم في ذلك معرفتهم الجيدة لتضاريس المنطقة، وهي طريقة قتال جديدة لم يعهدها الجنود الفرنسيون، ولتغطية فشلهم العسكري لجأت القوات الغازية كعادتها إلى النيل من سكان المنطقة، وانتهزت فرصة لجوء الثوار وعائلاتهم إلى قلعة تقع تحت الأرض بجبال قريوسة، دون أن تعلم بأن ذلك كان خطّة من المقاومة تهدف إلى استدراج العدو إلى المنطقة، لترصّد تحركاتهم ومباغتتهم بين الفينة والأخرى من منافذ أخرى للمغارة غير بارزة، وأمام هذه البطولات عمدت القوات الاستعمارية إلى محاصرة المنطقة وتجميع الحطب عند مداخل المغارة، وتم إشعال النيران بهدف تصفية جميع من كان بداخلها من أطفال ونساء وشيوخ في شهر جانفي 1845م[43]، ولم تشر الكتابات والوثائق الشحيحة عن المحرقة ولا إلى المكان بالتحديد ولا إلى عدد الضحايا أيضا، كما أن القوات الاستعمارية كانت تشوّه المعالم الجغرافية الطبيعية للمناطق التي كانت ترتكب فيها المجازر من خلال غلق كل المنافذ، والطبيعة تتولّى عملية إزالة كل الآثار.

3-2- **محرقة أولاد رياح جوان 1845م:** سعى بومعزة إلى إثارة سكان الونشريس ودفعهم إلى المقاومة، لأن العمليات العسكرية التي كانت تستهدف المركز العسكري الجديد بين الفينة والأخرى، كان بومعزة يعتمد فيها على كل قبائل الظهرة وكذا قبيلتي أولاد يونس بعين مران وصبيح، الأمر الذي ضاعف من سمعته وشعبيته[44].

أمام هذه الجرأة التي تنم عن التفاني في حب الوطن والثقة الكبيرة في النفس، تحرك بيجو من جديد لقيادة العمليات العسكرية في المنطقة بنفسه، بعد أن اصطحب معه قوات كبيرة وكل من الجنرالين بورجولي وروفو (Reveu) وكذا العقيدين لامبرولت (Lamirault) وسانت آرنو، ونظرا لعدم تكافؤ القوى، اعتمد محمد بن عبد الله على حرب العصابات والتنقّل السريع من مكان إلى آخر لإرهاق العدو، تبعا لتحركات المحتل التي كانت تصله معطيات عنها باستمرار ليلا ونهارا، وهي استراتيجية عسكرية حالت

دون تحقيق جيش الاحتلال لهدفه الأساسي المتمثل في إخضاع المنطقة بسهولة، ومن أهم مواجهات بومعزة العسكرية معركة جبل كنانشة بتاريخ 14 من أفريل 1845م ضد العقيد سانت آرنو، ثم أخرى بضواحي تنس مع العقيد كون روبار[45]، قبل أن يتّسع لهيبها ليشمل بني مراح والشرفة داخل منطقة أورليانفيل هذه المرّة، كما تعرّضت قافلة عسكرية محملة بالعتاد لهجوم في 22 من أفريل، بالإضافة إلى مهاجمة المخيم العسكري لتنس في 23 و28 من أفريل 1845م[46].

استرعت تلك العمليات الجريئة تجميع قوات عسكرية كبيرة بمنطقة وادي الشلف، حيث بلغ حجمها في ربيع 1845م 15 كتيبة، أربعة منها كانت بقيادة سانت آرنو على الضفة اليمنى من واد الشلف، وأحد عشر أخرى على الضفة المقابلة بقيادة بيجو نفسه، كما كلّف الحاكم العام ضباطه هذه المرّة بتجريد سكان المنطقة من الأسلحة، واستهدفت قبيلة أولاد رياح أولا لأنها أظهرت مقاومة شديدة لقوات الاحتلال منذ البداية[47].

بعد عجز القوات الاستعمارية عن إرغام سكان المنطقة على الاستسلام، شرعت في ترهيبهم وقمعهم واستهداف ممتلكاتهم لتفقيرهم وتجريدهم من كل محاولة للمقاومة عبر فرض غرامات باهظة ومختلفة عليهم؛ مالية وعينية تمثلت في تسليم الخيول والأسلحة، واشتهر في هذه المهمات القذرة كل من العقيد فلوري (Fleury) والنقيب بيسون (Bisson).

لقد تركّزت عمليات القوات الفرنسية الغازية خلال النصف الأول من شهر ماي 1845م في المناطق المجاورة لجبال بيسة في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة تنس حيث تتواجد قبيلة بني بو سعيد، وقبيلة هيجاس إلى الشرق من ذات المدينة، والتي كانت تمتد من الساحل حتى الدّاخل، وتضم مجموعة من القبائل أهمها: الزاغنية وتاوريرة وسنفيتة وبني حوّاء وزوقارة وبوعجب والطوالبية وأولاد العربي، والسواحلية وكنانشة وعمراوة والبراغيش وغيرها، وقد خصّص لها سانت آرنو قوة عسكرية فاقت الألف عسكري[48] للضغط عليها وإضعافها لكسر شوكة المقاومة فيها.

استهدفت هذه القوة أيضا كل المنطقة الوسطى لسهل الشلف الأوسط من بني راشد شرقا إلى واد ميناغربا، وصولا إلى جبال الونشريس في الجنوب، ولم تكن خرجات القوات الفرنسية للفسحة بل كان الهدف منها إلحاق أكبر الاضرار بسكان القبائل الثائرة، وكانت توزّع على الجنود في كل خرجة ستين(60) طلقة نارية.

كانت المقاومة إذا تكلّف القوات الغازية الكثير من الجهد والوقت والجنود، ولذلك انهال عساكر المحتل على ممتلكات الأهالي العزّل منذ 1 ماي 1845م بقيادة النقيب Fleury من فرقة الصباحية، ثم

التحقت به قوات العقيد Bisson على رأس 725 عسكري حيث شرعوا في قطع الأشجار المثمرة في القرى والمداشر المتواجدة غرب جبال الظهرة الشرقية من وادي علالة غربا إلى قبيلة بني هيجاس شرقا (التي التجأ إليها بومعزة)، حيث أحرقت الأكواخ والمحاصيل كالعادة[49].

وفي ذات الشهر توجه سانت آرنو إلى الجهة الغربية من جبال الظهرة حيث قبيلة بني مرزوق الواقعة بين تلعصة وتاجنة، وذلك يومي 20 و21 ماي، حيث سلب منهم 3000 رأس من الماشية، وانتقاما لهم قام الشريف محمد بن عبد الله بنفسه في اليوم الموالي بمواجهة العلو في معركة قويّة فقدت خلالها قوات الاحتلال أكثر من 30 جندي.

كما وقعت معارك أخرى بين الطرفين إلى غاية الثالث من جوان 1845م، وهو ما دفع بسانت آرنو إلى التراجع عن موقفه السابق حيال بومعزة حيث اعترف بأن قوته العسكرية تتزايد، وأن ذلك يذكّره ببداية الأمير عبد القادر؛ لأن تلك المعارك قتل خلالها 34 عسكري من بينهم ثلاثة ضباط، وجرح 105 آخرين من بينهم 8 ضباط[50].

إن الوقائع التاريخية المستقاة من وثائق وكتابات الفرنسيين أنفسهم أشارت إلى أن أول اتصال بين الفرنسيين والجزائريين كان بوسيلة الحديد والنّار، ولم يكن هناك أي مجال لأيّة حضارة، وإن كان البعض من الفرنسيين المعاصرين والقدامى قد أشار إلى تلك الإنجازات التي أقيمت هنا وهناك واصفين إيّاها بالمدنية، أقول بأن هدفها لم يكن إنسانيا البتّة بل استعماري صرف، وعلى النقيض من ذلك شهد المجتمع المحلي من جراء التواجد الهمجي للقوات الاستعمارية منذ البداية تغيّرات سلبية عميقة في بنيته الاقتصادية والاجتماعية بالخصوص، نتيجة سياسة الأرض المحروقة التي طالت كل شيء، ناهيك عن حصيلة القتلى والأسرى التي ما فتئت ترتفع وسط السكان العزّل.

لم تسلم جميع قبائل المنطقة، بحكم المنطق الاستعماري، من الممارسات الاستعمارية الهمجية، وكان رد فعل المقاومة قويا كلّما كانت تسمح الفرص بذلك، بسبب عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، ومن ذلك النّيل من قائد المكتب العربي لتنس للملازم بياترياس (Béatrias) حينما كان في قبيلة عويف في محاولة منه لدفعها إلى الاستسلام، وكانت نهايته على يد عناصر من قبيلتي بني مناح وأولاد سيدي هني في السابع عشر من جوان 1845م[51].

أدركت السلطات الاستعمارية أن القبائل هي ذخيرة للمقاومة في منطقة حوض الشلف الأوسط، ولذلك وضعت استراتيجية استهدفت تضييق الخناق عليها، وإظهار قوتها العسكرية ورد فعلها السّريع والعنيف دائما بغية زرع ثقافة الخوف والاستسلام؛ وجاء الدور بعد ذلك على قبيلة سيدي بلقاسم يوم

الثامن عشر من جوان، حيث أضطر سكانها من شيوخ وأطفال ونساء على الرحيل بعد أن ذاع بينهم صيت التفنّن الفرنسي في القتل والحرق والتدمير، وقصد هؤلاء السكان جبال أولاد بوزيد، وكلّف العقيد فلوري بملاحقتهم، إلا أنه لم يتمكن من ذلك باستثناء استيلائه على 1300 رأس من الماشية، وكالعادة فقد رجع ذلك العقيد إلى المنطقة في اليوم الموالي، وقام بتدمير كل القرى المكونة للقبيلة.

كما كلّف العقيد بيسون في ذات الوقت بالتوجه إلى قبيلة أولاد يونس حيث اقترف جرائم بشعة في حق السكان، وصادر مواشيهم، ثم جاء دور قبيلة سيدي يعقوب التي سلّط عليها القهر والزجر الاستعماري أيضا، وخاصة منطقة أولاد بن دومة التابعة لقبيلة أولاد عبد الله، بحجّة إيوائها للشريف بومعزة لعدّة أيام.

توالت عمليات الإبادة وإفلاس الجزائريين اقتصاديا لإضعافهم على المدى البعيد، وكان الشريف محمد بن عبد الله يرد عليها كلما سنحت الفرصة والإمكانيات بذلك، ولذلك تلقى العقيد بيليسيه Pelissier الذي كان في منطقة جبال الونشريس أمرا من بيجو بالعودة إلى أورليانفيل خاصة بعد أن عاد بومعزة منها إلى جبال الظهرة، وطلب منه اللحاق به، وسار العقيد بتاريخ 11 جوان 1845م بعد أن تعزّزت قواته بـ2554 عسكري مدجّجين بمختلف الأسلحة، وكان كل منهم يحمل غذاء لمدة سبعة أيام و60 طلقة نارية كالعادة[52].

استمرت تلك القوات في السير خلال اليوم الموالي على الضفة الشرقية لواد الشلف حتى وصلت إلى واد واريزان، ثم واد تاغية وواد بوجرة إلى غاية 14 جوان، قبل أن تصل إلى قبيلة بني زلطين التي ساهمت مساهمة فعالة في ثورة الشريف محمد بن عبد الله، معبّرين عن رفضهم للاستسلام بالشروط المطلوبة (التسليم ودفع الضرائب)، ولإرغامهم على ذلك شرعت تلك القوات في ممارساتها المعهودة من قطع للأشجار وتدمير للمساكن وإزهاق الأرواح، وفي منتصف النهار من ذات اليوم كانت الحصيلة 263 أسير، والاستيلاء على 2587 رأس من الماشية، أرسلت 1910 منها إلى أورليانفيل، أما الأسرى فقد حوّلوا إلى سجن مدينة مستغانم التي كانت تابعة عسكريا لقوات الجنرال بورجولي[53].

وصلت القوات الاستعمارية إلى أولاد رياح بتاريخ 17 جوان، وشرعت في تنفيذ مخططها المعتاد (الحرق، التدمير والتخريب...)، وكلّف بتلك المهمة في المنطقة كل من الفيلق السادس، و3 كتائب من قوات صيادي أورليون، ولا داعي للحديث عن تفاصيل المحرقة التي تحدث عنها الكثيرون، ونكتفي فقط بتقديم صورة حيّة عن همجية ولا إنسانية المحتل من خلال الصورة التي نقلها الطبيب العسكري أوجان مارتينو عن الأنين والأصوات المنبعثة من داخل المغارة، حيث ذكر تفاصيل لم يذكرها العساكر بخصوص

الأصوات التي كانت تنبعث من داخل المغارة: أصوات النساء وهنّ يختنقن بعد أن فارق أطفالهنّ الحياة، وأصوات قطعان الماشية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة[54].

لقد اختلف تقدير عدد ضحايا هذه المحرقة، حيث ذكرت المصادر العسكرية سالفة الذكر عدد 500، في حين ذكر ليون أوندري أن ضحايا مغارة الفراشيش بلغ 800 شخص[55]، أما أبو القاسم سعد الله فقد أشار إلى أن عددهم فاق الألف ضحية[56].

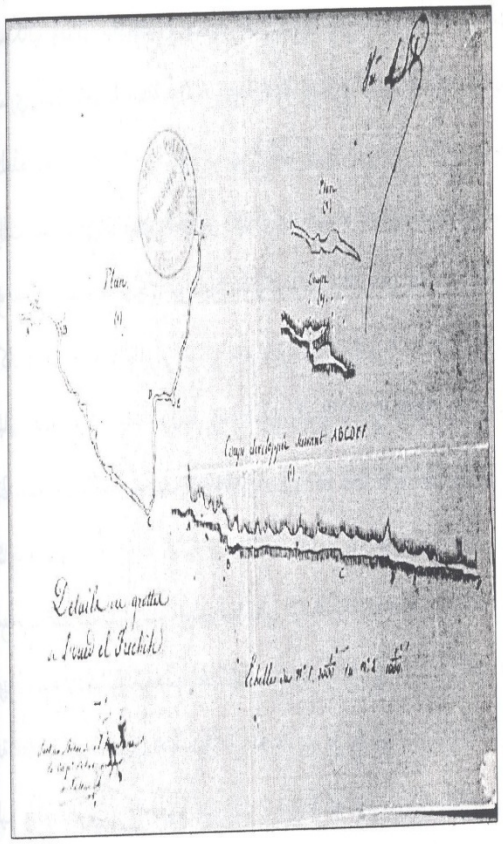

État-major de la subdivision, Journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 1ère quinzaine de mai 1845. SHAT. GR 1H 210.

كانت أهداف الدارة الاستعمارية من استهداف المغارات هي:

- ترهيب السكان.

- تشكيكهم في المخابئ الطبيعية في المنطقة، وأنها لا تقيهم من بطش فرنسا.

- دفع السكان إلى التسليم دون التفكير في اختيارات أخرى.

إن ارتكاب المجزرة الرهيبة في حق سكان أولاد رياح جاء بعد أن نالت المقاومة في السابع عشر من جويلية من بعض المتعاونين مع المحتل؛ حيث قتل الأغا الحاج أحمد في صبيح من قبل عناصر تابعة للشريف محمد بن عبد الله بعد أن أوهموه بأنهم أتباع سي محمد قايد صبيح، كما قتل أيضا كل من سي

قدور قايد مجاجة وبن عابد قايد أولاد قصير[57]، وهي الحادثة التي أثارت فزع قوات الاحتلال وأعوانه من دون شك، ولكن فرنسا الاستعمارية استغلّتها أيّما استغلال للانتقام من سكان المنطقة، ولتمرير رسالة واضحة إلى المتعاونين معها بأنها ستدافع عنهم وستنتقم لهم، في محاولة لجرّ المزيد منهم إلى خدمة فرنسا الاستعمارية، ولذلك وفي الوقت الذي كانت فيه قوات العقيد بيليسيه تحاصر السكان في غار الفراشيش، انطلقت قوات أخرى إلى جبال سيدي عيسى بن داود، وجبال بيسة بالقرب من ضريح الولي سيدي عبد القادر بن عبد الله إلى الجنوب الغربي من أورليانفيل، ولكن واجهتهم هذه المرّة مقاومة عنيفة من قبل 200 من الفرسان كان من بينهم الخروبي أحد أقارب الشريف بو معزة، والذي استشهد في المواجهة[58].

بعد مجازر غار الفراشيش لم تتمتّع فرنسا الاستعمارية بالأمن كما كانت تتوقّع، بل ازداد تخوف قوّاتها في المنطقة بدليل أن سانت آرنو كان لا يجرؤ على التنقل من أورليانفيل إلى تنس من دون حراسة مشدّدة.

ونتيجة لإصرار الأهالي على التعامل مع القوات الفرنسية كعدو فحسب، حاول سانت آرنو في السابع من جويلية 1845م الانتقام من قبائل سهل الشلف الأوسط، والضغط عليها عبر وضع جدول لما على تلك القبائل دفعه من مال وسلاح مقابل حصولهم على سلم نظري من القوات الغازية، واستهدفت عدة قبائل منها: أولاد فارس وحميس ومجاجة وبني راشد وصبيح وبني درجين وبغدورة وأولاد عبد الله وغيرها، كما هو موضح في الوثيقة المرفقة.

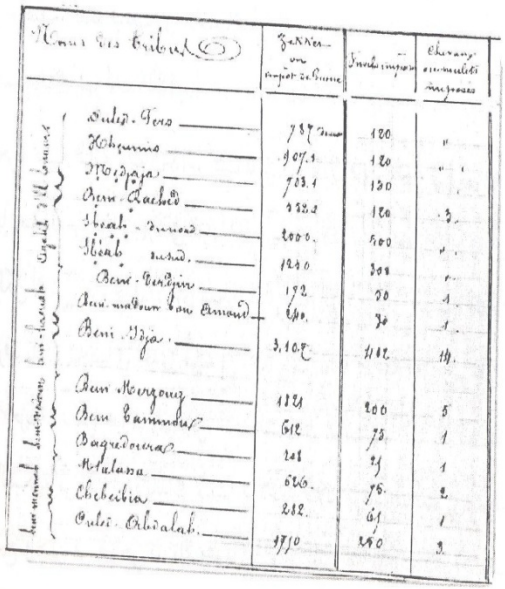

Division d'Alger, subdivision d'Orléansville, état-major de la subdivision, suite du journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 2ème quinzaine de juillet 1845, le capitaine de l'état-major de la subdivision, SHAT GR 1H 211.

يتضح من المعطيات التي استقيت من التقارير العسكرية أن الغرامات فرضت على جل قبائل منطقة حوض الشلف الأوسط، خاصة منطقة الأصنام وضواحيها، مما يعني أن المقاومة كانت عامة في المنطقة تحت لواء الشريف محمد بن عبد الله الذي أصبح بعد أن تعافى من جروحه التي أصيب بها نهاية سنة 1845م، ومن أهم المعارك التي خاضها محمد بن عبد الله تلك التي كانت ضد كون روبار بداية سنة 1846م بضواحي تنس، وكذا المعركة التي خاضها ضد هنري أورليون (دوق دومال) في الثامن من أفريل من ذات السنة قرب وادي الفضّة.

وأمام هذا الإصرار والبطولات اضطر بيجو إلى تجنيد كل من العقداء برتي وسانتارنو وكلاباريد ودالانفيل (Berthier، Saint Arnaud، Claparide، D'Allanville) لاحتواء الموقف، وانتهى الأمر بتدخله هو شخصيا[59]، مما يعني أن كفاءة هؤلاء العقداء لم تكن كافية للسيطرة على فارس الظهرة الذي قال عنه بيجو: "إن بومعزة هو الخصم الأكثر قوة الذي واجهنا في إفريقيا بعد الأمير عبد القادر"[60]، وهو ما يعني أيضا أن مقاومة الشعب الجزائري في المنطقة كان شاملا وعنيفا، وهو ما عرقل المخطط الاستعماري كثيرا لأن الإدارة الفرنسية كانت تعتقد بأنها ستضع يدها على المنطقة، وتباشر تنفيذ مشاريعها الاستعمارية المختلفة في وقت وجيز، وفي مقدمتها الاستيطان.

ولما عجزت السلطات الاستعمارية عن وضع يدها على المنطقة بطريقة سهلة وسريعة راحت تبطش بالأهالي وترهبهم كالعادة لدفعهم إلى الاستسلام أو إلى النزوح إلى مناطق أخرى، وهو ما حدث في منطقة صبيح خلال شهر أوت 1845م.

4-2 محرقة صبيح الثانية أوت 1845م: كتب قونيي سنة 1914م بأن الجميع في فرنسا وخاصة طلبة البكالوريا يسمعون عن محرقة الظهرة التي اقترفها العقيد بيليسيه لأنها تليت بجملة إعلامية ونقاش سياسي كبير، ولكن لا شيء عن المحارق الأخرى كمحرقة قبيلة صبيح التي شكّك في حقيقتها، رغم أن سانت آرنو اعترف بذلك شخصيا في إحدى رسائله إلى أخيه، واعتبر قونيه أن عدم وجود اسم مغارات صبيح على أية خريطة، عكس مغارات الفراشيش، كاف للشك في أمر حدوثها[61]، لأن الملاحظ هو أن التقارير العسكرية عن تلك الفترة بالذّات لم تشر إلى المحرقة إطلاقا، بل أشارت فقط إلى أن عناصر من قبيلة صبيح وآخرين من ضواحي مستغانم وغيرها لجأت إلى المغارة يوم 8 أوت 1845م بسبب اقتراب القوات الفرنسية التي يقودها سانت آرنو، وكلّف النقيب ريشارد بمهمة مطاردتهم، وأشارت ذات التقارير إلى أن حصار المغارات كان بالفعل يوم 9 أوت 1845م، وكانت تعليمات سانت آرنو صارمة، وتقضي بتشديد الحصار على المختبئين بداخلها، وكلّف العقيد كان روبار بالمهمة، كما أعطيت الأوامر بغلق

المنحنين الرئيسيتين للمغارة لمنع تسرب الهواء إلى داخلها، وفي ذات الظروف كانت قوات أخرى قادمة باتجاه مغارة صبيح، بعد أن أفرغت مطامير السكان من محتوياتها من الحبوب، ووزّعت على أحصنة المستعمر، واعترضت عددا من السكان وهم فارين من القوات الاستعمارية فعمدت إلى قتل 34 شخصا قطعت رؤوسهم، واقتيدت جثثهم إلى المخيم، في حين تم أسر النساء والأطفال، وتم الاستيلاء على 600 رأس من الماشية.

وفي ذات الوقت كان محمد بن عبد الله من خلال تنقلاته السريعة، على طريقة الأمير عبد القادر، يرهق العدو ويضلل استراتيجيته، حيث كان ينقّل باستمرار، وفشل العقيد بارتيي القادم من تنس في اقتفاء أثره، رغم تدعيمه بقوات عسكرية قادمة من مستغانم، والتي التقت جميعها بعين مران تمهيدا لتعويض ذلك الفشل العسكري بالانتقام من سكان المنطقة العزّل الذين لجأوا إلى المغارة.

أمر سانت آرنو القادم من أورليانفيل قواته بالانتشار حول كل مداخل المغارة لمنع خروج أي من اللاجئين، وفي نفس اليوم- 9 أوت- عاين بنفسه عملية الحصار، حينها كلّف النقيبين فاليسكي Fallesque من قوات الهندسة العسكرية، ونارز Narez من قوات المدفعية بمباشرة أشغال غلق كل منافذ المغارة[62].

في اليوم الموالي عاد سانت آرنو وتفقّد تلك الأشغال، ثم ترك تعليمات صارمة إلى الرائد كان روبار الذي يشرف على الحصار بالحرص على عدم السّماح بفرار أي من الأهالي، ولم يشر التقرير لا لمفاوضات ولا لمحرقة إطلاقا، وهو ما يعني أن الضابط الذي حرّر التقرير تلقّى تعليمات بعدم الإشارة إليهما، واكتفى بالإشارة إلى رفع الحصار عن المغارة بعد إتمام تلك الأشغال، لكنه أشار إلى إطلاق مجموعة من قذائف المدفعية[63] دون الإشارة إلى الهدف من ذلك، وهو أمر يثير الكثير من التساؤلات، وإن كان في الوقت ذاته يسعى إلى إخفاء مجزرة أخرى كان الحاكم العام بيجو في غنى عنها بعد الضجّة الإعلامية والبرلمانية التي أثارتها محرقة غار الفراشيش من أجل تضليل الرأي العام الدولي بالخصوص.

لم تكن لا محرقة الفراشيش ولا محرقة صبيح سكان للمنطقة والقبائل المجاورة على الاستمرار في مقاومة المستعمر، حيث تشير التقارير العسكرية إلى أن القوات الاستعمارية عمدت في يوم الثالث عشر من أوت إلى ترهيب القبائل المجاورة لأورليانفيل لمنع قدوم النجدات إلى قبيلة صبيح لعزلها، ولذلك تم تدعيم المركز العسكري بعين مران لموقعه الاستراتيجي حيث يقع بين أورليانفيل والبحر، وهو ما يسمح بوصول النجدات الفرنسية بسرعة عند الضرورة.

توجهت القوات الاستعمارية بعد محرقة الصبحة إلى قبيلة أولاد يونس التي كان يعتقد أن الشريف بومعزة يتواجد بها، وكلّف العقيد ألونفيل بهذه المهمة على رأس قوة عسكرية هامة، إلا أن معلومات أخرى أشارت إلى أن بومعزة انتقل إلى منطقة بلوطة بالساحل مع كل زمالته، وعندما وصلت تلك القوات إلى المنطقة لم تجد أثرا لبومعزة لأنه كان قد غادرها منذ فترة[64]، وهو أمر يوحي إلى أن بومعزة، حتى ذلك الوقت، كان على علم مستمر بتحركات قوات الاحتلال ليلا ونهارا.

وبعد الفشل العسكري الآخر، لجأت القوات العسكرية المحتلّة كعادتها إلى حرق الأكواخ والخيم بالمنطقة، وأسر والدة زوجة الشريف بومعزة وكل الخدم الذين لحقت بهم تلك القوات في الرابع عشر من أوت، والذين تم اقتيادهم إلى المركز السكري بعين مران[65].

إلا أن سانت آرنو أشار إليها، وتحدّث عن حصار مغارة صبيح بتاريخ 9 أوت 1845م، وتم إشعال النيران في 10 و11 من ذات الشهر، وفي يوم 12 تم إغلاق كل المنافذ، وكانت النتيجة مقبرة كبيرة مات فيها أكثر من 500 شخص معظمهم أطفال ونساء، وقال سانت آرنو بشأنها: "ومع أن بداخل المغارة أكثر من 500 جثة إلا أن ضميري لا يؤنبني إطلاقا، وإن اقتضى الأمر سأعيد نفس العملية غدا"[66]، كما افتخر في رسالة إلى أخيه من عين مران بتاريخ 15 أوت 1845م قائلا: "قمت بمقبرة كبيرة، والتربة ستغطي جثث الموتى إلى الأبد"، ثم أضاف: "بعد أن ينتهي كل شيء، لن تواجهنا هذه المرّة إلا الحرارة والجراد"[67].

لقد حاولت الإدارة الاستعمارية أن تبقي على هذه المحرقة سرية لتفادي مثل تلك الحملة الإعلامية والسياسية التي سبقت الإشارة إليها، والتي جاءت بعد محرقة أولاد رياح، رغم أن بيجو تلقى من سانت آرنو تقريرا مفصّلا بذلك، ولكن ما عساه يفعل وهو من كتب إلى وزير الحرب بعد محرقة الفراشيش رسالة جاء فيها: "إنني أتحمل كل المسؤولية على ما بدر من العقيد بيليسييه"[68].

واستمر شك قوتييه، ولذلك قرّر زيارة المنطقة في 15 جوان 1914م، حيث لم يكن يسمع أي من للمستوطنين الأوربيين بالمنطقة بالمحرقة، عكس الأهالي الذين كانوا لا يزالون يحتفظون من خلال الذاكرة الجماعية بمعطيات عن تلك المجزرة "إن أجدادنا وآباءنا منعونا من التردد على للمغارة لكيلا نمشي على عظام الموتى"[69]، وهو ما يعني أن المستوطنين لم يكن يهمهم تاريخ البلاد ولا مصير العباد، بل كانوا لا يهتمون إلا بما ينعمون به من خيرات وما تدرّ عليهم من فوائد فحسب، في حين كان السكان المحليّين يتناقلون عبر الرواية الشفوية من جيل إلى آخر أحداث تلك المجزرة الأليمة، مشكلين ذاكرة جماعية تشهد

على بربرية الاستعمار، وتجب الإشارة هنا إلى أن الوثائق والكتابات التاريخية لا تشير بتاتا إلى مكان محرقة صبيح الأولى كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولذلك أرجّح فرضية وجود مغارتين مختلفتين في منطقة صبيح.

كان المستعمر يعتقد بأن مجزرة غار الفراشيش وصبيح الثانية ستثني سكان المنطقة عن المقاومة، خاصة في قبيلة صبيح، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث، بدليل أن سانت آرنو قاد قوات استعمارية كبيرة في الثامن من أوت باتجاه ذات المنطقة، حيث قامت قواته بحرق الأكواخ والخيم والحقول، وإتلاف المحصول السنوي من الحبوب الذي كان الفلاحون قد انتهوا من حصاده، والتحقت به قوات أخرى قادمة من أورليانفيل ومستغانم وتنس، وكان كل من العقيد برتيي وكلاباريد ودالانفيل (Berthier، Claparide، d'Allanville) وسانت آرنو يلهثون وراء قائد المقاومة الشريف محمد بن عبد الله الذي كان يتنقل من منطقة لأخرى تضليلا للعدو، سعيا لإثبات وجوده وسيطرته على المنطقة لرفع معنويات السكان.

ورغم تلك الخرجات العسكرية ورغم المجازر الاستعمارية، التي ستظل نقطة سوداء في تاريخ فرنسا، لم تنشط الحركة الاستعمارية في المنطقة بقوة، رغم أن الإدارة الفرنسية باشرت منذ شهر أكتوبر 1845م في بناء ثكنة عسكرية كبيرة بمدينة تنس، وإنجاز جزء من القناة المخصصة لسقي الأراضي الواقعة إلى الغرب من للدينة، كما تم بناء مسلخ، وتدعيم الطريق المؤدي إلى أورليانفيل (الأصنام) بالأحجار عند واد علاّلة على المدخل الجنوبي للمدينة، وكذا استكمال الجدار المحيط بالكنيسة الكاثوليكية والشروع في عملية تشجير واسعة، حيث وإلى غاية شهر سبتمبر 1846م تم بناء 200 بيت بالأحجار بمدينة تنس، وكانت 66 أخرى قيد الإنجاز، علاوة على 85 بيتا من الأخشاب، كما عرف ميناء تنس حركة بحرية حيث شهد في ذات الشهر رسو 11 سفينة بالميناء، كما وصل تعداد المجموعة الأوروبية بالمدينة إلى 2469 شخص يقابلها 64 شخص من الأهالي فقط، وهذا النقص في عدد السكان المحليّين يبرره الفزع الذي انتابهم من الفرنسيين وهمجيتهم، إلا أن الرسالة التي بعث بها أحد نواب بيجو إلى وزير الحرب تعكس غير ذلك، حيث أشار فيها إلى أن الأحداث التي تشهدها المنطقة لم تسمح إلى غاية ذلك اليوم من القيام بكل الأشغال المبرمجة[70]، رغم أن تقريرا رفع إلى الوزير بتاريخ 11 أوت 1845م نفى وجود أية عراقيل أمام للمشاريع الفرنسية بالمنطقة[71].

2- استمرار المقاومة بعد المحارق: لم تثن لا محرقة الفراشيش ولا محرقة صبيح سكان المنطقة والقبائل المجاورة عن الاستمرار في مقاومة المستعمر، حيث تشير ذات التقارير العسكرية إلى أن القوات الاستعمارية عمدت في يوم الثالث عشر من أوت إلى ترهيب القبائل المجاورة للأصنام لمنع قدوم النجدات إلى قبيلة

صبيح لعزلها، ولذلك تم تدعيم المركز العسكري بعين مران لموقعه الاستراتيجي الذي يسمح بوصول النجدات الفرنسية بسرعة عند الضرورة[72].

رغم كل المجازر التي ارتكبتها القوات الغازية بكل وحشية وبربرية، لم يستسلم سكان المنطقة، حيث لجأ الشريف بومعزة إلى قبيلة فليتة بمستغانم، وأثار كل البلاد ضد الفرنسيين، على حد تعبير سانت آرنو نفسه في رسالة بتاريخ 24 سبتمبر، وهناك تواجه مع قوات الجنرال بورجولي (Bourjolly) قتل خلالها العقيد بارتيي(Berthier) بتاريخ 22 من سبتمبر، ولذلك طالب الجنرال تعزيزات من كل من معسكر وأورليانفيل، وكان وقع معركة سيدي إبراهيم (بين 23 إلى 26 سبتمبر 1845) بالغرب الجزائري على الجيش الفرنسي قويا حيث خسروا خلالها 427 جندي و9 ضباط[73].

تواجهت القوات الفرنسية المجتمعة وقوات الشريف بومعزة التي كانت تتألف من 3000 من المشاة و2000 فارس مرّة أخرى يومي 22 و23 أكتوبر 1845م، وبعد الفشل العسكري سلّط الجيش الفرنسي حقده على كل من سكان وادي رهيو وعمي موسى وأولاد خويدم ومازونة وأولاد عباس وفليتة[74].

اشتدت المقاومة خلال شهر ديسمبر (رسالة 17 ديسمبر) بمنطقة الونشريس التي كان يتواجد بها الأمير عبد القادر، الذي التحق بصفوفه آغا أورليانفيل الجيلالي بن السايح، وذلك حسب سانت آرنو، لاستدراج القوات الفرنسية المتواجدة في الشلف إليه، لكي يمكّن بومعزة من قطع الطريق الواصل بين أورليانفيل وتنس[75].

ويبدو أن المنطقة وميناء تنس بالخصوص كان يشكل أهمية حيوية للإدارة الاستعمارية، مما يفسّر تنقل الحاكم العام بيجو إلى مدينة أورليانفيل يومي 29 و30 يناير 1846م للبحث عن وسيلة تمكنهم من الأمير عبد القاد الذي وصفه سانت آرنو بالغزال الطائر لسرعة تحركاته[74]، كما أن بومعزة كان يشكل بالنسبة لهم حاجزا أمام مشاريعهم الاستعمارية في المنطقة، خاصة وأنه فعاليته لم تتراجع حيث تمكّن بتاريخ 28 يناير من قتل سبعة جنود وجرح 18 آخرين، وعلى إثر ذلك اكتفى سانت آرنو بالافتخار أمام أخيه بقطع بساتين جميلة وحرق قرى رائعة.

لقد اعترف سانت آرنو في الأخير في رسالة 11 سبتمبر 1846م، بأن الظهرة قد أتعبته، ولو كان باستطاعته لرماها في البحر، كما أن الجنرال مونتودون أشار إلى انتصارات بومعزة إلى درجة أن الكثير من القبائل تحدثت عن اقتراب نهاية الاستعمار، لأن صدى الثورة وصل إلى غاية بني مناصر ضواحي شرشال شرقا، وإلى الونشريس جنوبا، ومستغانم غربا، ويقر الجنرال بأنها أرغمت الكثير من الوحدات العسكرية على التراجع[76].

لقد شهد المثلث الممتد من الصبحة وأولاد رياح وقربوسة داخل منطقة حوض الشلف الأوسط، من خلال ما سبق، مجازر يندى لها جبين البرابرة أنفسهم نتيجة التوغل الاستعماري في المنطقة، وكرد فعل على المقاومة العنيفة التي أبداها سكان القبائل منعا لذلك التوغّل، وهو ما يبرز بجلاء همجية وبربرية فرنسا الاستعمارية، لأن أوامر ارتكاب تلك المجازر جاءت من باريس دونما شك، وما قيل عن بعضها في منابر البرلمان وعلى صفحات الصحف لا تعد من كونها نقاش سياسي بين السلطة والمعارضة خلال تلك الفترة، لأن المعارضين لسياسة الملك لويس فيليب وحكومته تفننوا في مجازر أخرى في الزعاطشة سنة 1849م وغيرها بعد أن استلموا السلطة بعد ثورة سنة 1848م، وهو ما يعني أن ما كتب وقيل عن محرقة الفراشيش بفرنسا هو نقاش أملته اللعبة السياسية، وبهدف تلميع صورة فرنسا، الحاملة لمشعل الحرية والحضارة الذي لوّحت به ولا تزال في كل المحافل، ولم يكن مستمد أبدا من آلام شعب كامل ليس في منطقة حوض الشلف فحسب بل في الجزائر كلها.

الهوامش:

(1). Xavier Yacono, Histoire de L'Algérie, de la fin de la Régence turque à l'insurrection de 1954, Editions de L'Atlanthrope, Paris, 1993, p. 79.---(2). Le Cte D'Ideville, Le Maréchal Bugeaud d'après ses correspondances intime et des documents inédits : 1784-1849, Tome 3, Librairie de Firmin- Didot et Cie, Paris, 1882, p.254.---

(3).www.histoire-fr.com/monarchie_juillet_difficile_maintien_ordre_3.htm.

اطلع على الموقع بتاريخ: 27 05201م، على الساعة: 23.15

(4).Le Cte D'Ideville, op. cit., p.251.

(5). كلمة مأخوذة من الحشمة بالكسرة وهي من الحياء، أو من الحشم محرّكا وهو الغضب، كما في لقاموس والمعنيان معا صالحان هنا، كانوا يسمون بني راشد لحلولهم قبل بني راشد والذين هم من بطون زناتة، ويعرف هذا الجبل اليوم بجبل عمور، ثم انتقلوا إلى غريس حيث دخلوا في اتباع بني غريس وأطلق عليهم اسم الاشراف. للمزيد ينظر:---الشيخ الطيب ابن المختار ابن الطاهر بن البشير، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، ط 1، المطبعة الخلدونية التلمسانية، 1961م، ص330.

(6).Camille Rousset, « La conquête de l'Algérie, Le Gouvernement du général Bugeaud », in : Revue du Deux Mondes, tome 84. 1874, pp 763-792.---(7) . Yves Lacoste, André Noushi & André Prenant, L'Algérie, Passé et présent : Le cadre et les étapes de la colonisation de l'Algérie actuelle, Préface de Jean Dresch, Editions Sociales, Paris, 1960,p. 260.--(8) .Ibid, pp. 301. 302--(9).Ibidem.---(10)-Dr F. Andry, l'Algérie, Promenade historique et topographique, Lefort Imprimeur Editeur, Paris, 1868 , P. 108.--(11). Géneral Montoudon, Souvenirs militaires, Afrique, Crimée, Italie, Librairie Ch. Delagrave, Paris, 1898, pp. 31.32.--(12). Ibid, 49.52.

(13). Eugène Martend de Cordoux, « Souvenirs de la conquête de l'Algérie », suite, La Revue hebdomadaire, n : 25, du 23 mai 1903, pp.442-454.---(14) .Bugeaud à Monsieur le maréchal ministre de la guerre, le 10 mars 1843. ANOM. ANOM. GGA. 1L/13.---(15). Le Cte D'Ideville, p. 364.--- (16). Bugeaud à Monsieur le maréchal ministre de la guerre, op. cit.

(17). رغم أن بيجو كان قد أنهى مهام لأمير دوق اورليان في الجزائر بعد استلامه الحكومة العلة، الا أنه أسمى المركز العسكري بالأصنام باسمه، وذلك لأن الأمير توفي بتاريخ 13 جويلية 1842م وهو في طريقه إلى مدينة Neuilly الفرنسية في حادث سير. ينظر:

Le Cte D'Ideville, op. cit., p. 359.--(18) . Ibid, p. 370.--(19). Ibidem, p. 386.---(20). M.Guizot, Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps, tome 7, Michel Loroy Frères, Libraires- Editeurs, Paris, 1865, p. 524.--(21). Dr F. Quesnoy, l'Armée d'Afrique depuis la conquête d'Alger, Jouvet et

Cie Editeurs, Paris. (s.d), p. 196.---(22). Le Président du conseil ministre secrétaire d'état de la guerre a M le Maréchal Duc d'Isly gouverneur général le 25 octobre 1844. ANOM, op. cit.

(23). بلغ عدد المستوطنين الذين إلى غاية 30 جوان 1843م بأوليانفيل 90 شخصا معظمهم يقيمون في خيام وبعضهم شرع في البناء بالأحجار. ينظر:

Extrait de l'historique d'Orléansville du 16 au 30 juin 1843, pour le 2 ème bureau, Paris le 12 aout 1843. ANOM, op. cit.---(24). Rapport fait au ministre le 11 aout 1845, ANOM, ibid.---(25). Louis-Philippe Roi des Français, par le Roi le président du conseil ministre secrétaire d'état de la guerre, Duc de Dalmatie, le 14 aout 1845. ANOM, ibidem.---(26). Louis-Philippe Roi des Français, par le Roi le président du conseil ministre secrétaire d'état de la guerre, Duc de Dalmatie, le 14 aout 1845. ANOM. GGA. 1L/13.---(27). Saint Arnaud chef de la Subdivision d'Orléansville, à Monsieur le maréchal Duc d'Isly, le 22 juillet 1844. ANOM, ibid.

(28). Dr F. Quesnoy, op. cit., p. 229.---(29). Saint Arnaud chef de la Subdivision d'Orléansville, à Monsieur le maréchal Duc d'Isly, le 22 juillet 1844. ANOM, op. cit.---(30). M. Guizot, op. cit., pp. 523.526.---(31). Mission au Maroc, Considérations sur le traité de commerce conclue entre la France et le Maroc au camp de Lalla Maghnia le 18 mars 1845 rédigé par le général De la Rue pour M. Guizot ministre des affaires étrangères. SHAT GR 1H 212.---(32). M. Sainte- Beuve, op. cit., p. 9.---(33). Général Mantoudon, Souvenirs militaires, Afrique, Crémée, Italie, Tome 1, Librairie Ch. Delagrave, Paris, 1898, p. 113.---(34). M. Sainte- Beuve, p. 25.---(35). Le Cte D'Ideville, op.cit., p. 27.---(36). Le Dr F. Quesnoy, op. cit., p. 231.---(37). Le Cte D'Ideville, op.cit., p. 60.---(38). Ibid, p. 66.---(39). M. Guizot, op. cit., p. 526.---(40). Le Dr F. Quesnoy, op. cit., p. 197.---(41). Louis De Charbonnières, Une grande figure, Saint- Arnaud, Maréchal de France, Nouvelle Editions Latines, Paris, 1954, p.67.---(42). Le général Derrécagaix, « Le général Pélissier et les asphyxiés des grottes du Dahra », Revue hebdomadaire, n : 26 du 1er juillet 1911, pp. 456-481.---(43). Le Dr F. Quesnoy, op. cit., pp.131.132.---(44). Ibid. p. 234.

(45). A. Behaghel, l'Algérie, Tissier Libraire- Editeurs, Alger, 1865, pp. 66.68.---(46). Le Cte D'Ideville, op. cit., p. 14.---(47). Le Dr F. Quesnoy, op. cit., p. 235.---(48). Division d'Alger, subdivision d'Orléansville, état-major de la subdivision, suite du journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 1 ère quinzaine de mai, le capitaine chef d'état-major. Orléansville le 15 mai 1845. SHAT GR 1 H 210.---(49). Etat-major de la subdivision d'Orléansville, journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la première quinzaine de mai 1845. SHAT GR 1H 210.---(50). M. Sainte- Beuve, op. cit., p. 21.

(51). Division d'Alger, subdivision d'Orléansville, état-major de la subdivision, suite du journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 2 ème quinzaine de juin, le capitaine chef d'état-major. Orléansville le 30 juin 1845. SHAT GR 1 H 210.

(52). Journal de la colonne expéditionnaire commandé par le colonel Pélissier chef d'état-major général, agissant dans le Dahra. SHAT. GR 1H 210.---(53). Ibid.---(54). Eugène Martend de Cordoux, « Souvenirs de la conquête de l'Algérie », suite, La Revue hebdomadaire, n : 25, du 23 mai 1903, pp.442-454.---(55). Léon André, Compagne d'Afrique, récits populaires et anecdotiques, P. Lebigre Duquesne Libraire Editeur, Paris, 1868. p. 295.

(56). أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، الجزء الأول، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1992، ص 239.

(57).M. Sainte- Beuve, p. 22.---(58). Division d'Alger, subdivision d'Orléansville, état-major de la subdivision, suite du journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire pendant la 2 ème quinzaine de juillet 1845, le capitaine de l'état-major de la subdivision, SHAT GR 1H 211.---(59).A. Behaghel, op. cit., p.53.---(60). Le Cte D'Ideville, op. cit., p. 6.---(61). E.F.Gautier, « Une visite au grottes du Dahra », la Revue de Paris, mai- juin 1914, Bureau de la Revue, Paris, 1914, pp. 729-758.---(62).Journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire d'Orléansville depuis le 7 aout 1845, bureau de l'état-major de la subdivision, Orléansville le 19 aout 1845, le capitaine chef d'état-major. SHAT GR 1H 212.

(63). Op. cit.---(64). M. Sainte- Beuve, op. cit., p. 31.---(65). Ibid.---(66). E.F.Gautier, op. cit.

(67). Ibid.-- (68). M.Guizot, op. cit., p. 87.---(69). E.F.Gautier, op. cit.---(70). Pour le gouverneur général, et le directeur général des affaires civils en congé, le maitre des requêtes au conseil d'état

directeur général par intérim, à son excellence monsieur le ministre de la guerre, le 5 février 1846. SHAT, op. cit.---(71). Rapport fait au ministre, le 11 aout 1845, SHAT, ibid.---(72). Journal des opérations et des marches de la colonne expéditionnaire d'Orléansville depuis le 7 aout 1845, bureau de l'état-major de la subdivision, Orléansville le 19 aout 1845, le capitaine chef d'état-major, op. cit.---(73). Le Dr F. Quesnoy, op. cit., p. 234.

(74). M. Sainte- Beuve, op. cit., p. 44.---(75). Ibid, p. 47.---(76). Général Mantoudon, op. cit.,p. 116.

Summary: *After the invasion of Miliana, colonial troops headed west to settle in El Asnam on 1843, making them a military base above ruins of the Romanian city due to its strategic location and near Tennes city.*

After embarking on paving the way between the two regions, it was the reaction of the region's population in the foothills and mountain of Dahra controlled by Cherif Ben Abdellah (Boumaaza).

After the failure of the French armies to achieve military victory, began targeting property (cut fruit trees, burning homes and looting of crops and popular tasc burdens).

After all this fails resorted to shock the intimidation and murder barbaric through Beni Sbih (Sobha) on 1844 at the hands of colonel Cavaignac and children on Ouled Riah on 1845 on hand of colonel Pelissier, then we have the third one in sbih on the hand on colonel saint Arnaud on august 1845.

In this inhuman and bad way colonial forces paved the way for its being in the region of the middle of the Chlef valley.